كتاب بوشكين والقرآن الكريم

للدكتور محمد علي البار

منذ أيام تكرم الطبيب العلامة د. محمد علي البار باطلاعي على مخطوطة كتاب جديد له تحت الطبع بعنوان: «بوشكين شاعر روسيا والقرآن الكريم». واقترح عليّ أن أترجم قصيدة بوشكين «النبي» ليضمها للكتاب، وهو ما قمت به فعلا. وكان الدكتور البار قد أشاد كثيرا بترجمتي لقصيدة «الطلاسم» لشاعر ألمانيا الأكبر «جوته» والتي تتحدث عن عظمة الله سبحانه وتعالى، وذلك في كتابه «هل كان «جوته» شاعر الألمان مسلما؟!» الذي صدر منذ مدة، وفيه فضل ترجمتي على ترجمة الفيلسوف المترجم د. عبدالرحمن بدوي..

والدكتور محمد علي البار طبيب بارز نال أعلى الشهادات العلمية في سرعة قياسية، وعمل أستاذاً جامعياً واستشارياً طبياً، وهو حالياً يدير مركز أخلاقيات الطب في المركز الطبي الدولي بجدة في السعودية، وهو داعية للإسلام، نشيط من خلال جهوده الكبيرة والمستمرة في هيئة الإعجاز العلمي، ومجمع الفقه الإسلامي الدولي، وغير ذلك من الهيئات والمؤتمرات، وأيضاً من خلال كتبه التي بلغت اثنين وثمانين في العدد، أولها كان «خلق الانسان بين الطب والقرآن» الذي صدر عام ١٩٧٩ م، وصدرت طبعته الثالثة عشرة المنقحة عام ٢٠٠٥م. وهو الكتاب الذي استفاد منه كثيراً الطبيب الفرنسي موريس بوكاي في كتابه «ماهو أصل الانسان؟»، وقد اعتنق بوكاي الإسلام، وأعلن ذلك أمام الملك فيصل، بل أصبح داعية على مستوى العالم في كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم».

د. شهاب غانم- الإمارات

وكُتُب الدكتور البار بعضها طبي يتحدث عن مضار الخمر والتدخين والمخدرات.. إلخ. وبعضها يتناول وجهة نظر طبية علمية فقهية في قضايا معاصرة مثل أخلاقيات التلقيح الصناعي وزرع الأعضاء، والفرق بين الموت الإكلينيكي والشرعي.. إلخ. وبعضها كتب تتعلق بأحوال المسلمين مثل كتابه «المسلمون

في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ» في مجلدين، وكتابه «أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو السوفيتي»، وكتابه «التركستان مساهمات وكفاح»، وكتاب «كيف أسلم المغول؟»، وكتاب «إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن»، وكتاب «جزيرة سقطرى».

وللدكتور البار اهتمام خاص بقضية العرب الأولى فلسطين وتاريخ اليهود والثورات والعهد القديم، وأيضاً العهد الجديد مثل كتبه «الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم»، وكتاب «تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية»، وكتاب «القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ»، وكتاب «العلمانية أصولها وجذورها».

وأخيراً نشير إلى اهتمام د. البار بالأدب المتعلق بالإسلام مثل كتابه «البوصيري شاعر المدائح النبوية»، وكتابه «هل كان جوته شاعر الألمان مسلماً»؟، وكتابه موضوع حديثنا: «بوشكين شاعر روسيا والقرآن الكريم».

يقول البار في مقدمة كتابه هذا:

«لقد تأثر كثير من الأدباء والشعراء في أوروبا وروسيا بالإسلام والقرآن الكريم، وكان من أبرزهم كوكبة من أدباء روسيا وشعرائهم العظام، نذكر منهم بوشكين شاعر روسيا الأعظم ومؤسس لغتها الشعرية الذي لم يصل إلى مرتبته إلى اليوم أي شاعر آخر.. و«ليرمينتوف» الشاعر الروماني الذي أعجب بالقرآن والإسلام وتأثر بالشعر العربي والآداب العربية، و«تولستوي» أعظم أدباء روسيا وأكثرهم شفافية وإنسانية، تأثر تأثراً شديداً بالقرآن وأحاديث المصطفى ﷺ.

ومن أدباء ألمانيا اشتهر «جوته» بديوانه الشرقي وتأثره العميق بتعاليم القرآن والإسلام والآداب العربية..

ومن أدباء الإنجليزية يبدو تأثر «برناردشو» بالإسلام واضحاً في كثير من مقالاته وأدبياته.

وفي فرنسا نجد «موليير» متأثراً بالإسلام. ومن المعاصرين الفيلسوف أحمد عبدالواحد «رينيه»، وروجيه جارودي.

ومن الأدباء المحدثين نجد «جيمس بولدوين» الكاتب الأمريكي الأسود الذي اعتنق الإسلام ودافع عنه ودعا إليه بقوة وبأسلوب أدبي عال رصين..

ومن ألمانيا المعاصرة نجد «آن ماري شميل»، و«زيجريد هونكه»، و«مراد هوفمان»، وكلهم قد أسلموا.

ولابد للدارسين والمهتمين بالآداب العالمية من إبراز هذه الأعمال في سلسلة خاصة باللغة العربية، كما ينبغي نشرها بلغتها الأصيلة بطبعات خاصة، تنشر على نطاق واسع بالإضافة إلى طبعها باللغات العالمية الأخرى، فهي

تشكل مدخلاً مهما لتصحيح صورة الإسلام والدعوة إليه بأقلام أبناء تلك الأمم.

هذا كلام داعية بعيد النظر لا يكتفي بالدعوة والكلام بل يعمل بدأب لينفذ مقترحاته وآراءه، فقد أنجز بالفعل كتابا عن جوته، وها نحن مع كتابه عن بوشكين.

◁◁ وقفة مع كتاب بوشكين والقرآن الكريم

وبعد المقدمة المهمة قسم الدكتور البار كتابه إلى ثلاثة فصول وقائمة بثلاثة وعشرين مرجعاً عدا ما نقله عن مواقع الإنترنت العديدة.

والفصل الأول يتحدث عن الإسلام في روسيا في (٢٦) صفحة، أما الفصل الثاني فعن بوشكين وحياته في

(٤٢) صفحة، ثم الفصل الثالث عن التأثيرات الإسلامية العربية في إنتاج بوشكين في (١٥٠) صفحة.

ولد بوشكين في موسكو في (٦ يونيو ١٧٩٩ م) في أسرة أرستقراطية ثرية، ومات مقتولاً في مبارزة وهو يدافع عن سمعة زوجته وشرفها في فبراير ١٨٣٧م. ألم يقل المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ومن الذين أثروا في بوشكين في طفولته وصباه والده الذي كان يقرض الشعر بالفرنسية، فبدأ بوشكين بمحاولة كتابة الشعر بالفرنسية وهو في الثامنة، وتعلم اليونانية والإنكليزية، وقرأ شكسبير وبايرون، كما تأثر بمربيته الروسية التي علمته الروسية وحب الوطن.

ومن أكثر الناس تأثيراً فيه جدته لأمه ماريا إبراهيم هانيبال، وكان هانيبال فتى أفريقياً اختطف وهو طفل، وبيع في إستانبول، وأعجب به السفير الروسي في الآستانة وأرسله إلى بطرس الأكبر قيصر روسيا الذي أعجب به وبعثه لدراسة العلوم البحرية وصناعة السفن في فرنسا، فصار قائداً بحرياً يحقق الانتصارات حتى صار أدميرالاً فأنعم عليه بلقب أرستقراطي ومنحه إقطاعاً.

وكان هانيبال مسلماً يكتم إسلامه ويقرأ القرآن سراً في بيته. وأخبرت الجدة «بوشكين» بذلك فبحث عن القرآن والسيرة وتاريخ الإسلام وقال: «القرآن هو الكتاب الديني الوحيد الذي أذهل مخيلتي»، علماً أنه قرأ ترجمة لمعاني القرآن باللغة الروسية.

في الفصل الأول يستعرض الدكتور البار تاريخ الإسلام في روسيا والقوقاز، فنرى أن أذربيجان فتحت على يد الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، وفتح المسلمون الأوائل أجزاءً كبيرة من القوقاز وأبخازيا وجورجيا وأرمينيا، بل كانت الأسر النصرانية كثيراً ما تساند جيش المسلمين لعدلهم وتسامحهم مع النصارى، ولكن عندما ضعفت الخلافة الإسلامية عاد النصارى وأخرجوا المسلمين.

وفتحت الداغستان لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب

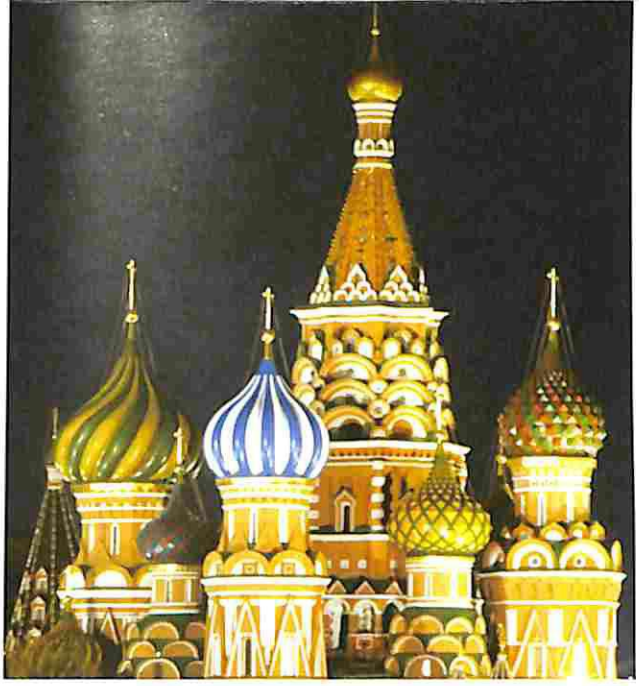

رضي الله عنه، وكان أهل تلك البلاد بعد أن اعتنقوا الإسلام يتحدثون العربية.. يقول رسول حمزاتوف - أشهر شعراء الداغستان في العصر الحديث وأحد أشهر شعراء الاتحاد السوفيتي- في حديث من محطة إذاعة موسكو العربية:«إن أباه كان ينظم الشعر بالعربية، وإنه هو نفسه كان يحب شعر امرئ القيس، وألف ليلة وليلة».

ويستعرض البار حركات الجهاد الإسلامية مثل حركة شامل الجهادية، ونبذة عن ترجمات معاني القرآن الكريم إلى الروسية، والأدباء المسلمين أو الذين تأثروا بالإسلام في روسيا والاتحاد السوفيتي. ويذكر كيف سبق الإسلام «الأرثوذكسية» في تلك البلاد، ويروي حواراً بين الرحالة ابن فضلان وملك البلغار المسلم الذي كان عميق الفهم للإسلام. وقد انحسر الإسلام في تلك الديار في عهد كاثرين الثانية في القرن الثامن عشر، التي نقضت عهودها مع المسلمين في القرم بإعطائهم الحكم الذاتي، وطردت مئات الألوف، وقبل ذلك في عهد «إيفان» الرهيب الذي نكل بالمسلمين في القرن السادس عشر.

يقول ديستوفسكي : لم يستطع بوشكين أن يتوصل إلى الكونية إلا بعد أن هضم تراث الآداب الأخرى كالأدب الفرنسي والإنجليزي والعربي، وصهرها كلها في بوتقة الأدب الروسي والشخصية الروسية.. ويقول أيضاً: « إن كل الكوكبة الحالية من الأدباء تعمل على هدى بوشكين ولم تصنع الجديد من بعده».

ويقول تولستوي : إنك لا تحس عند بوشكين بالنظم بما تمتلكه القصيدة من إيقاع ونغم وقافية.. إنك لتحس أنه ليس ممكناً أن تقال بطريقة أخرى».

أثر القرآن الكريم في شعر بوشكين

على الرغم من صدور ألوف الكتب والدراسات عن بوشكين لم ينشر عن أثر الإسلام في شعره إلا القليل .

ومن الذين ترجموا بعض شعر بوشكين من العرب الدكتورة المصرية مكارم الغمري عميدة كلية الآداب بعين شمس صاحبة كتاب «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي»، ومالك الصقور صاحب كتاب «بوشكين والقرآن»، والدكتور طارق مردود صاحب كتاب «بوشكين والقصائد الشرقية»، والشاعر العراقي حسن الشيخ جعفر صاحب كتاب «قصائد مختارة لبوشكين».

وفي قصيدة «إستانبول» نرى بوضوح حماسة «بوشكين» للإسلام وتحسره على ضعف الإسلام في إستانبول :

تنكرت إستانبول للنبي
إستانبول لأجل ملذات الرذيلة
غيرت السيف والدعاء
تنكرت إستانبول لعرق الجهاد
فأخذت تشرب الخمر في وقت الصلاة»

هذا مع العلم أن إستانبول كانت في مجابهة مع روسيا.

وقصائد «بوشكين» المتعلقة بالإسلام مجموعة قصائد «قبسات من القرآن» وهي تسع مقطوعات، ترجمتها د.مكارم الغمري، ود. طارق مردود، ومالك الصقور.

القصيدة الأولى ترجمة د. مكارم الغمري، تقول:

أقسم بالشفع وبالوتر
وأقسم بالسيف وبمعركة الحق
وأقسم بالنجم في الصباح
وأقسم بصلاة العشاء
لا. لم أودعك»

فالتأثر بالعبارات القرآنية واضح فيها.

وفي محاولة لترجمة المقطوعة الثالثة المتأثرة بسورة عبس ولقمان وغيرهما من السور، يقول مالك الصقور في بدايتها:

«لماذا يتكبر الإنسان؟
ألأنه جاء عارياً إلى هذه الدنيا؟!
أم لأنه يعيش عمراً قصيراً ؟!
أم لأنه يموت ضعيفاً كما ولد ضعيفاً ؟!
ألا يعلم أن الله يميته
وعندما يشاء يبعثه؟!..

وفي مقطوعة أخرى متأثرة بآية النور ترجمة د . مكارم الغمري، نجد فيها قوله:

لقد أضاءت الشمس في الكون
وأضاءت أيضاً السماء والأرض
مثل نبتة كتان تمتلئ بالزيت
تضيء في مصباح بلوري
صلّ للخالق فهو القادر
فهو يحكم الريح في يوم قائظ
ويرسل السحب إلى السماء
ويهب الأرض ظل الأشجار»

ثم يقول في دعوة واضحة نحو النور الذي أنزل على الرسول ﷺ :

«إنه الرحيم قد كشف
لمحمد القرآن الساطع
فلننتسبْ نحن أيضاً نحو النور
ولتسقط الغشاوة عن الأعين»

وفي القصائد التسع واحدة عن قصة نمرود مع إبراهيم عليه السلام، وأخرى عن قصة عزير الذي أحياه الله كما في سورة البقرة، وقصائد مستوحاة من سور أخرى. ولكننا نكتفي بهذه الإضاءة مع تقديرنا لجهود الدكتور محمد علي البار في نشر هذه المعلومات التي يجهلها أكثرنا ■